الموضوعة البورجوازية الصهيونية القائلة بـ«شعب يهودي » واستخلصت من ذلك نتيجة فحواها ان التحرر الوطنـي يجب ان ينجـز قبل التحـرر الاجتماعي ، وبذلك فصلت العامل اليهودي عن رفيقه العامل الاورثوذكسي مثلا والخياط اليهودي عن زميله الحرفي البروتستنتي والمثقف البورجوازي الصغير اليهودي عـن زملائه الطلبة والكتـاب والرأسمالي اليهودي عن غيره من الرأسماليين . (يمكن مقارنة ذلك بمحاولة بعض المنظمات النسائية فصل نضال النساء عن نضال الرجال على اساس سمات محددة تطبع وضع النساء) . « وهنا شعب يفتقر الى اي ارتباط بالتراب والزراعة والطبيعة ، شعب مسلوخ عن وسائل الانتاج الاولية الريفية والمدينية معا ... والحل الجذري الدائم الوحيد يكمن في التجميع الاقليمي لهذا الشعب المشتت . الا ان هذا ايضا سيكون هدفا وهميا اذا لم يترافق مع تحويل اجتماعي ليس أقل جذرية وثورية من التجميع الجغرافي . ذلك ان تسوية الحياة اليهودية وجعلها طبيعية ومستقرة يتطلب ايضا العودة الى الارض والزراعة والعمل العضلي . لقد كان هذا هو المخرج الوحيد الذي يوفر امكانيـة معالجة الشذوذ اليهودي من جذوره »(١). في الواقع ، ليس من الصعب أن يفهم هذا النوع من الافكار ، عاطفيا ، عندما يكون المرء على علم بالاضطهاد الذي كان يقع على اليهود في روسيا القيصرية خلال العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر : « في العام ١٨٨٦ جرى تخفيض عدد اليهود الذين يقبلون في المدارس الثانوية والعالية وفي العام ١٨٨٧ منع اليهود الذين كانوا يقطنون الريف من الانتقال من قرية الى اخرى . وفي العام ١٨٨٩ نزع حق اليهود في الانتساب الى مهنـة القضاء ... وفجأة قيل للحرفيين كالرسامين وصانعي الحبر وصانعي صباغ الاحذية وبائعي الواح الخشب الخ ، ممـن كانوا يعيشون وعائلاتهم طيلة سنوات عـدة على هذه الحرف ، أنهم لم يعودوا حرفيين ... وأصبح بوليس كييف ، الذي ينظـم غارات خاصة على المساكن اليهودية اثناء الليل ، مشهورا بقسوته ضد اليهود . ولكن هذه الفظائع جميعا ليست شيئا بالمقارنة مع الاضطهاد الوحشي الذي تعرض لـه اليهود في موسكو عامي ١٨٩١ و١٨٩٢ . فبجرة قلم ، حرم الالاف من اليهود الذين كانوا يعيشون في موسكو من حقهم في البقاء فيها ، واجبروا على مغادرتها مع زوجاتهم واطفالهم مشيا على الاقدام مسافات تحف بها المخاطر »(٢).

هكذا ليس من الصعب التوصل الى الدوافع التي تقف خلف الاشتراكيـة الصهيونيـة ولكن هـذه الاشتراكية مجنونة قدر جنون اللاسامية . كان لا بد « للاشتراكيين » الذين فصلوا العمال والحرفيين والفلاحين اليهود عن غيرهم من العمال والحرفيين والفلاحين في اوروبا ان يفعلوا الشيء ذاته عندما وصلوا الى فلسطين . اذ لم يكن باستطاعة هؤلاء ان يروا ان اليهود وغيرهم ممن ينتمون الى الطبقة ذاتها يشتركون في اشياء أكثر بكثير من تلك التي تفصل بينهم: في الكتاب الذي اقتبسنا عنه آنفا فصل كامل بعنوان « المسألة العمالية » يصف فيه الكاتب زيارة لمصنع للبسط ، حيث كان على الزائر ان يتلمس طريقه عبر الغرف المظلمة متعثرا بأحواض المياه منتزعا قدميه بجهد جهيد من طبقة القاذورات التي كانت تغطي الارض محـاذرا باستمرار ان يسحق الاطفال الذين يزحفون في القاذورات « وبهذه الطريقة ، وصل في النهاية الى احدى النوافذ حيث كان العمل يجري »(٣)

ربما كان قادة الحركة الصهيونية قد استطاعوا خداع « الاشتراكيين » ، كما خدعوا غيرهم ، وأوهموهم أن فلسطين خالية من السكان ، فذهب هؤلاء اليها بنيّة طيبة . فقد كان للاكاذيب الدعاوية الكولونيالية فيما يتعلق بفلسطين الطابع ذاته الذي كان لها فيما يتعلق بالاراضي الاخرى التـي احتلها الاوروبيون. وفي السيرة التي كتبها مايكل بار زوهار لحياة بن جوريون ، ونشرت عام ١٩٦٦ ، لا يزال يقال ان « ... الحروب وانجراف التربة وقلـة الزراعـة حولت كروم العنب وبساتين الفاكهـة وجداول نشيد الانشاد الى قفار قاحلة مجدبة . واصبحت السهول الساحلية الخصبة والوديان الداخلية الغنـاء مستنقعات للملاريـا . وتسوط الشمس العنيدة جبال اليهودية لتصطدم بصخـور

---

١ — Dan Leon: The Kibbutz, Tel Aviv 1964, p. 6.

٢ — Russia Described by Russians (in Swedish), Stockholm 1906, p. 391-410.

٣ — المصدر ذاته ص ١٦٨ .